الحرب الباردة وسياسة الاحلاف

"حلف بغداد نمودجاً"

د.محمد محمد خلف
الأكاديمية الليبية

علي أثر هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولي وما تبعها من عقوبات قاسية منها دفع تعويضات كبيرة، تقليص مناطق النفوذ الالمانية، تحديد القوة العسكرية الألمانية بحيث أصبح آن ذاك جيش المانيا أضعف جيش أوروبي، وتم ذلك من خلال اذلال المانيا وتوقيعها معاهدة فرساي في 18 يونيو 1919، والتي كانت من أهم اسباب اندلاع الحرب العالمية الثانية علي يد هتلر، وسانده احرار المانيا بالوصول الي السلطة في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي وتمكن في اقل من عقد في تكوين وبناء المانيا والتي اصبحت اقوي اقتصاديا وعسكريا من أية دولة أوروبية. وقاد هتلر الحرب الثانية وانتصر علي فرنسا ووقع الفرنسيون وثيقة الهزيمة والاذلال بنفس الحرب وبنفس التاريخ مع اختلاف السنوات. (18 يونيو 1940). إلا أن استراتيجية (هتلر) العسكرية اصابها الغرور وعدم تقدير الموقف، فنقض معاهدة عدم الاعتداء مع الروس، الأمر الذي غيّر موازين القوي في غير صالح المانيا وانهزمت سنة 1945. وكان الدعم الأمريكي لأوروبا هو السبب الأول؛ وفيه تخلت امريكا عن سياسة العزلة حيث اصبحت حامية وقائدة لأوروبا .

حاول رئيس أمريكا (روزفلت) وضع سياسة لعالم ما بعد الحرب مع الزعيم السوفييتي ستالين، إلا أن الموت لم يسعفه، فتولي ترومان رئاسة امريكا واصبح مرغما علي قيادة اوروبا من خلال الدعم الاقتصادي لإعادة بناء اوروبا (مشروع مارشال) الذي كلف خزينة الامريكان المليارات من الدولارات.

من أولي نتائج الحرب أن المانيا تم تقسيمها بين السوفييت والامريكان ومن هنا بدأ ما عرف بالحرب الباردة. وقد تزامن صعود امريكا مع بداية السقوط البريطاني والذي احدث فراغا سياسيا وعسكريا واقتصاديا، فبدأت اطراف الامبراطورية البريطانية في الانسلاخ فقد فقدت درة التاج البريطـاني (الهند) 1947، حرب اليونان وتدخل الدول، فقدان فلسطين لليهود 1948 انسحابها من قناة السويس والغاء معاهدة 1936 مع مصر 1951 !؟.

في هذا السياق ارادت امريكا ملء الفراغ والحد من التمدد السوفييتي ومنعه من الوصول الي البحر المتوسط والشرق الأوسط حيث منابع النفط والممرات الاستراتيجية، كذلك محاولة منعه في شرق آسيا. وقد اصبح صراع الحرب الباردة خطيرا بعد ان قام الطرفان بإنتاج القنبلة النووية (1949) ،حيث تأكد الردع المرعب لكلا الطرفين.

بهذا وخلال فترة الحرب الباردة اصبح لزاماً علي كل طرف ان يعرف ويدرس اطماع وسياسة وقوة الطرف الآخر وبدون رصاص !؟ بمعني (ترك الكلاب النابحة مستلقية). فحرارة الحرب الباردة في برلين بدأت تصل إلي اماكن أبعد حيث بدأت ساحات المعركة تتسع، معارك كوريا، فيتنام والشرق الأوسط. ومن أجل حماية الشرق الأوسط بعدما تأكد لهم بأن دولة اسرائيل سوف لن تكون قادرة علي مواجهة المد الثوري، وكذلك لن تستطيع تحقيق الاطماع الاستراتيجية لأمريكا، ولهذا كان التحول نحو العرب والمسلمين أنفسهم بخلق إدارة تكون هي البديل عن الاستعمار القديم .

حلف بغداد:

خلال أغسطس 1954م قامت بريطانيا بتأسيس منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط، بمعني ايجاد تكتل لمقاومة التمدد السوفييتي جنوبا بعد اندلاع ثورة يوليو 1952 الناصرية واعلان توجهها التحرري، وكذلك قادت بريطانيا مقاومة اي حركة تحريرية عربية، ويعني ايجاد بدائل عن المعاهدات والاتفاقيات المشبوهة، وقد استطاعت ان تقنع تركيا والعراق بتأسيس هذه المنظمة، تم انضمت بريطانيا 1955م،

تلتها باكستان وايران في نفس السنة أي الدول السائرة في المنظومة البريطانية. امريكا لم تكن عضوا في الحلف إلا انها من اقوي الداعمين له.

ووفقا لميثاق الحلف فإن المادة (3)، تنص بأن يلتزم أعضاء الحلف بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة، وإن حق الانسحاب مكفول لأي دولة بشرط ان تقوم بالطلب قبل ذلك بستة اشهر، وكانت مدة المعاهدة خمس سنوات قابلة للتجديد لمدة مماثلة.

استند الحلف علي عدة عوامل كانت حاضرة في الوطن العربي، أهمها عاملين اثنين هما:

أ/ أسر حاكمة نصبتها بريطانيا تحت عنوان اعلان الاستقلال، وقد ارتبط كيانها بكيان دولة بريطانيا وتحت مسمي مملكة، مثل العراق، ليبيا، الأردن، السعودية، مصر إلى آخره .

وجود احزاب ذات توجه محافظ، لها ارتباط مع الغرب ومستعدة للتعاون من أجل الوصول للسلطة. وهي عناصر لها ارتباط تاريخي قديم مع بريطانيا وفرنسا، كذلك استطاع الحلف ان يكسب بعضا من الجماعات الدينية التي كان لها تواجد شعبي، لكنها لم تستوعب التوجه التحرري[1].

السؤال هنا الذي يطرح نفسه كيف استطاعت بريطانيا الوصول إلى بناء هذا الحلف في وقت قصير!؟

استطاعت من خلال عملائها فى تركيا العراق وباكستان ان تتخذ الاجراءات الآتية:

– ففي 19 فبراير 1954م، وقعت الباكستان وتركيا اتفاقية عقد حلف عسكري موالياً للغرب دون الاعلان عنه، وفي اليوم التالي اعلنت كل من الباكستان وتركيا انهما على استعداد لفتح باب المفاوضات مع العراق من أجل الانضمام للحلف[2]، وبهذا ففي 24 فبراير 1954م زار الباكستان وفد تركي برئاسة عدنان مندريس والتقى نظيره الباكستاني، ونتج عن ذلك الاجتماع صدور بيان بأن الدولتان اعلنتا الاتفاق على

دراسه مشروع وسائل التعاون في مجالات السياسة والدفاع[3]، وبالمناسبة فقد استغل عبد الناصر وجود الامير عبد الاله العراقي في مصر وابلغهم بحجم المؤامرة والعمل على فصل العراق وما لديه من قوة بشرية واقتصادية عن قضية العرب الاولى، وان هذا الحلف سيكون داعما لإسرائيل وقال: "من الضروري لنا جميعا ان ننتبه ،وان تكون لنا خططنا في الدفاع عن أمننا القومي ومصالحنا، ولا نكتفي بالتوجه عمياناً الى خطط الآخرين"[4] وفي اغسطس 1954 استغل عبد الناصر اداء فريضه الحج واجتمع مع الملك ابن سعود والامير فيصل، وعندما سألهم عن حلف بغداد أجاب ابن سعود "ان الجماعه في بغداد لن تقر لهم عين إلا إذا ساقوا المنطقة كلها قطيعا إلى مراعي الاستعمار"[5].

وهكذا تأكد ناصر بعدم انضمام السعودية، إلا أنه في 9 سبتمبر 1954م فوجيء عبد الناصر بأن مصطفى بن حليم رئيس وزراء المملكة الليبية وقع اتفاقية دفاع مشترك مع امريكا تم بموجبه استمرار التواجد الامريكي في قاعده الملاحة وفي نفس اليوم وقع بن حليم اتفاقية دفاع مشترك مع تركيا بمعنى تم ربط ليبيا بالناتو!؟[6]. واصبحت مصر محاصرة من الغرب والشمال والشمال الشرقي!؟.

– وفي 22 يناير 1955م، زار العراق وفد تركي برئاسة عدنان مندريس حيث عقدا اجتماع مع حكومة نوري السعيد برئاسة احمد باباك، وتم الاعلان عن عقد اتفاق حيث كان أهم ما نص عليه:

أ/ دارت مباحثات بين الطرفين حول ايجاد تعاون بتأمين استقرار منطقة الشرق الأوسط، وقررت الدولتان عقد اتفاق يرمي إلى تحقيق توسيع التعاون المذكور قريبا .

ب/ سيحتوي الاتفاق علي التعهد بالتعاون لصد أي اعتداء قد يقع عليها من الداخل أو خارج المنطقة .

ج/ من الضروري والمفيد أن تنضم إلي هذا الاتفاق دول غيرهما تؤمن بهذه الاهداف وتعمل لها بحكم موقعها الجغرافي[7].

وَفي 24 فبراير 1955م تم توقيع حلف بغداد بين تركيا والعراق وانضمت اليه باكستان وايران وبريطانيا، وتكوّن المجلس الدائم للحلف في بغداد وانضم إليه ممثلون عن الولايات المتحدة بصفة مراقبين .

ما يهمنا من حلف بغداد هو تأثيره المباشر علي دفع مصر وسوريا إلى الوحدة، وقبلها التقارب فيما بينهما لمجابهة الحلف وانصاره في المنطقة .

أشاع الغرب بأن الزعماء المصريين قد استاءوا من الاقتراح الذي قدم اليهم وهو أنهم سيلعبون دورا ثانويا وفق توجيهات تركيا في المنطقه الدفاعية الغربية المقترحة، وادعي بأنهم كانوا خليقين بقبول الاشتراك في المنطقة لو أعطي لهم الدور الأول بدلا من تركيا أو العراق ؟! إن مثل هذا الرأي يضرب عرض الحائط بالعداء المستحكم في العالم العربي نحو أي حلف مع الغرب[8].

واستمرار لموقف مصر من منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط[9]، وبناءاً لإعلان الحكومة المصرية رأيها صريحا بالنسبة للأحلاف علي اختلاف مصادرها فإنها لم تقف عند حد المعارضة بالنسبة لقضية بغداد، وانما خطت خطوتها في تحقيق السياسة التي خطتها وأعلنتها بالنسبة للبلاد العربية، وهو أن الدفاع عن هذه المنطقة انما هو واجب الدول العربية وحدها[10] .

أما موقف سوريا من الحلف وموقف الحلف من سوريا، فهناك مذكرة من السفير الأمريكي في دمشق، كانت قد قدمت في شهر سبتمبر 1955 إلي الحكومة السورية، تضمنت رأي الحكومة الأمريكية في الحلف وما تستطيعه بعض الدول العربية، ومن ضمنها سوريا .

ونص المذكرة التالي:

أ/ ان وزارة الخارجية الأمريكية رحبت علنا بالاتفاق العراقي التركي، كخطوة انشائية لمنطقة دفاع حقيقية، يمكن ان تضم بعض البلدان العربية و الباكستان وإيران .

ب/ بعد تطور هذه المنظمة علي غرار الاتفاق العراقي– التركي، تري حكومة الولايات المتحدة مقدما احتمالا لأن تستطيع الدول العربية الواقعة (خلف المنظمة)،

أي وراء الخط الشمالي، القيام بدور مفيد في المنطقة الدفاعية. وفي هذه الظروف اذا أرادت إحدى الدول العربية الواقعة خلف المنظمة أن تنضم إلى هذه المنظمة الدفاعية، فإن الولايات المتحدة مستعدة للنظر في تقوية دفاع تلك الدول العربية .

ج/ نمو الترتيبات الدفاعية وكذلك تحسين العلاقات العربية–الاسرائيلية، أمر ضروري للمساهمة الفعالة من قبل الولايات المتحدة الامريكية في الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط، وإن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تبدد مواردها علي قوى غير متجانسة داخل المنطقة ولا علي سباق في التسلح بين العرب وإسرائيل[11].

من هذه المذكرة يتضح ارتباط حلف بغداد بأمرين: أولهما أي سلاح لا يقدم للدول العربية إلا اذا انضمت الي الحلف، وثانيهما ان المساعدة الأمريكية للدول العربية لا يمكن أن تكون إلا على أساس الصلح مع اسرائيل. بمعني آخر إن المساعدة الاقتصادية والمالية تساوي الصلح مع اسرائيل وان كانت بطريق غير مباشر، أو بتحسين العلاقات معها علي أبسط الفروض.

من أهم أهداف الحلف غير المباشرة تطويق سوريا وعزل مصر عن الشرق العربي . وبتحقيق هذا الهدف يقضي علي الحياد العربي، (وكان حلف بغداد الذي تحقق به ادخال دولة عربية في الحلف هي العراق حيث تحقق شملها عربياً وجعلها نقطة ارتكاز للدفاع عن الاستعمار عن مصالحه ونفوذه، هو الأسلوب الذي اضطر الاستعمار أن يأخذ به بعد أن فشل في أن يزج في أحلافه منذ البداية دولا عربية أخري كمصر وسوريا بصفة خاصة .

وسار الاستعمار في محاولاتة لتوسيع الحلف، عن طريق ضم دول أخري له كالأردن، أملا أن يتبعها لبنان، لتطويق سوريا فتعزل عن مصر وبذلك يقضى علي الحياد الإيجابي كإتجاه تبناه عدد من الدول العربية[12].

لقد كان شعب سوريا في تلك الحقبة من الزمان مطوقا بأحزمة الملكيات المتعاونة مع الغرب. كما كان محاطاً في بعض اجزائه من الداخل بمؤسسات البورجوازية واليمينية التي كانت تستثمر جميع مصالحه، من تأخر وضعف اقتصادي

وعصبيات طائفية وإقليمية في سبيل أن تفتت وحدة النضال الشعبي وتعدد جبهاته الداخلية المتعارضة، وعلي ذلك فقد عملت دول الاستعمار جهدها أن تدخل سوريا لحلف بغداد هادفة من ذلك إلي عزل مصر، وكان القول الذي يتردد في تلك الآونة يقول : " اذا كان للحلف أن يصبح منافسا (لناصر) فلا بد له أن يجذب أقطار عربية أخري"، وبالفعل ما ان تم وجود هذا الحلف حتي بدأ التنافس بين الحلف ومصر علي جر سوريا والأردن – مع اختلاف ومقاصد كل منهما .

ولقد كانت هذه المرحلة مريرة من النزاع بين الأقطار العربية، ولم يدرك الغرب أهمية هذا النزاع حينذاك، وكان العراق في هذا النزاع متعرضا لمساوئ كثيرة، فهو في اتفاقه مع بريطانيا وتركيا يكون قد اتفق مع الاستعمار الذي احتل الوطن العربي أربعة قرون، وكان هناك بعض من سعى إلى لمّ شمل العرب في وحدة بين العراق والأردن وسوريا، ولكن هؤلاء أنفسهم رأوا في الحلف عقبة كأداء فاضطروا أن يهاجموا الحلف، وكان مصير سوريا في هذه المناورات ذي أهمية خاصة، فهي تمتاز بروح عربية قومية شديدة، مع أن الحكومات السورية المتعاقبة لم تكن مستقرة، وبالنتيجة خسر حلفاء بغداد معركة سوريا مع أن تركيا والعراق حاولتا مرات عديدة القيام بتهديدات عسكرية علي الحدود السورية، وطالما أن بغداد هي التي خسرت معركة سوريا، فإن القاهرة تكون الرابحة، وبالفعل، أن مصر نجحت في أن تجتذب سوريا إلى جانبها وكذلك الحال مع الأردن ولو إلى فترة بسيطة من الزمان.

ليس من نافلة القول أن حلف بغداد كان عاملا جديدا ومربكا للاستعمار ولأعوانه في المنطقه العربية، وكان للحلف تاريخ متميز انبثق في أوله من فكرة دالاس عندما أدرك ان مشروع الدفاع عن الشرق الاوسط مات وليدا، وسبب موته، وعدم قبوله هوا أن هذا المشروع حاول جمع أقطار الشرق الأوسط في اتحاد منفرد موجه ضد روسيا، ولما كانت بعض هذه الأقطار بعيدة عن التهديد الروسي، فإنها لم تشعر بالخطر الذي تواجهه، وكانت مصر مثالا لذلك[13].

ولم يمض وقت طويل حتي اصبحت بريطانيا تتحدث عن حلف بغداد وكأن حجر الزاوية السياسية في سياستها الجديدة في الشرق الأوسط . وهذا ماجعل اللورد (سترانغ)، رئيس الدائرة الخارجية البريطانية، يتحدث عن الحلف بأنه تنظيم رائع، والمعاهدة في حد ذاتها توكيد علي عزم الدول الغربية الاحتفاظ بمراكزها في الشرق الأوسط[14]. وفي نفس الوقت هذا ماجعل عزم روسيا يشتد للقضاء علي هذه المراكز[15]. ولذلك يصح لنا أن نقول أن حلف بغداد قد عجل في تقدم روسيا في مجالات الشرق الأوسط، وقد ازدادت قدرتها وتشجعت أكثر لأن الحلف اغضب الرأي العام العربي، ولأن العرب رأوا فيه محاولة غربية لاستخدام الاقطار العربية في حربهم ضد الروس، وثاني نتيجة لظهور حلف بغداد هي التقاء مباشر بين السياسة الخارجية السوفييتية من جهة والسياسة الخارجية في كل من مصر وسوريا من جهة ثانية. فالاتحاد السوفييتي يهاجم الاحلاف الغربية اينما كانت، ومصر وسوريا أعلنتا أن الدفاع عن المنطقة من اختصاص شعوب المنطقة، ورفضتا الحلف وبدأتا بالهجوم عليه من القاهرة ودمشق بشدة متزايدة، ولم تقتصر ردت الفعل العربية العدائية علي مصر وسوريا بل تعدتهما إلى معظم الشعوب العربية.

ولقد كان حلف بغداد عبارة عن تعويض لبريطانيا حيث تهدد نفوذها في العراق بعد انتهاء معاهدة التحالف البريطانية – العراقية، والتي كانت عملية داخلة في اطار متعدد الجوانب . وفي نفس الوقت، فالحلف، في هدف من اهدافه، عبارة عن تعويض عن اتفاقية الجلاء التي وقعت بين مصر وبريطانيا والتي تنسحب بموجبها القوات البريطانية من قناة السويس[16].

وبالنسبة للحكام العراقيين فلقد كانوا متشوقين لتجديد روابطهم مع بريطانيا ولكن في نفس الوقت كانور يواجهون صورة الانعزال داخل الجامعة العربية ويواجهون عداوة الرأي العام العربي وعداوة مصر وسوريا بشكل خاص، هذه العداوة التي أرادو أن يبتعدوا عنها بعد أن استطاعت مصر بثورتها أن تستقطب الرأي العام العربي.

أما ردود الفعل الفورية التي قامت في سوريا ضد حلف بغداد فهي اعطاء قوة دافعه للحياد وللمشاعر التي هي ضد الأسرة الهاشمية، هذه المشاعر العدائية التي بدأت في الحرب العالمية الأولي أثناء الثورة العربية، ووجدت جذورها في فشل الشريف حسين في قيادة الثورة وانحرافه بها، ومحاولات جر سوريا إلى حلف بغداد هي محاولات متعددة المظاهر، ترتبت عليها العديد من الآثار في منطقة الشرق الاوسط وفي العالم، ولقد أظهر حلف بغداد عجز بريطانيا الواضح عن مواجهة تصاعد حركة التحرر القومي، هذا العجز الذي دفع بريطانيا أيضا الي أن تتلقف فكرة حلف بغداد وتقيم مع الامبريالية الأمريكية حلفا يضم دولا واقعة تحت النفوذ الأمريكي، مضافا إليها عراق نوري السعيد . وتعليق (ايدن) ان حلف بغداد هو طوق النجاة للمصالح الاستعمارية، (ان انضمامنا الي الحلف قد عزز نفوذنا ورفع صوتنا في منطقة الشرق الأوسط وأخذ نفوذ حلف بغداد يثبت قدرته علي تثبيت الوضع واستقراره)[17].

قلنا ان العراق هو الدولة العربية الوحيدة التي ارتبطت رسميا بحلف بغداد وأصبحت ركنا أساسيا من أركانه، وفي نفس الوقت اتخذ منها الاستعمار الانجلو – أمريكي نقطة استناد وانطلاق في أعمال الضغط الموجهة ضد الدول العربية الأخرى بشكل عام وضد سوريا بشكل خاص، وكانت مصر وسوريا مركزين أساسيين في الهجوم المعاكس الذي شنته قوى التحرر العربي ضد الحلف ومشاريعه، واستطاعت حركة التحرر العربي بفضل صمود القاهرة ودمشق، أن تمنع ارتباط الدول العربية الأخرى رسميا بحلف بغداد، وان لم تستطع منع بعض الحكام العرب من العطف والانحياز بشكل واضح وسافر الي جانب حلف بغداد، وانقسم جزء من الشعب السوري يمثل الرأسمالية والاقطاع وقسم كبير من البورجوازية الكبيرة والمتوسطة عن القاعدة العامة للشعب السوري، وهي ان هذا الشعب يتوحد داخليا كلما هدده خطر خارجي طارئ، فلأول مرة تسفر البورجوازية والرأسمالية والاقطاع في سوريا عن وجوهها وتؤيد حلف بغداد.

ولم يكن هدف الاستعمار والعراق عن طريق كل المؤامرات ضد سوريا إلا إضعاف القوى الثورية داخليا، بخلق قوى، ان لم تكن متساوية بقوتها الجماهيرية، فعلي الأقل يمكنها أن تقف بوجهها حتي ولو بالإرهاب والاغتيال والمؤامرات، وفعلا فإن المؤامرات التي شهدتها سوريا في الاعوام السابقة على الوحدة كانت تهدف إلى تفتيت الاتجاه الوطني، تم تصفيته في الداخل، ولكن النضال الوطني والتضامن الفعال بين القاهره ودمشق استطاعا ان يحفظا المؤامرة الاستعمارية تلو الأخرى[18].

كان تأثير حلف بغداد علي المجال الداخلي لسوريا، فإننا نلاحظ انه منذ أعلن الحلف في عام 1954م، والنشاط الدبلوماسي الأنجلو– أمريكي يعمل ليل نهار لفرض سياسة الأحلاف على الأقطار العربية، ولقد استطاعت الدبلوماسية الغربية أن تكتشف وجه حكام عمان عندما وافقوا على الانضمام للحلف. أما الدبلوماسية الأمريكية فلم تجد مجالا في سوريا نتيجة لقوة التيار الشعبي التحرري، وان كانت لبعض الفئات في سوريا لم تتوان أو تتأخر في اظهار عطفها علي السياسة الاستعمارية الجديدة، وحين تحقق اجتماع الرؤساء في القاهرة لبحث اتجاهات السياسة الدولية في المنطقة وإتخاذ موقف واحد من الأحلاف العسكرية، ذهب فارس الخوري، رئيس وزراء سوريا آنذاك، للمؤتمر، وبدل أن يقف ضد الأحلاف العسكرية موقفا واضحا وصريحا، وقف مشبوها عاد ليؤكد قائلا بأن الحلف العراقي – التركي إذا لم يكن به نفع فليس به ضرر علي كل حال[19]. وكان أن سقطت وزارته نتيجة لهذا التصريح. وانتهت بذلك الحلقة الأولي من حلقات الضغط علي السياسة العربية المتحررة في سوريا، واخد المد الشعبي يشتد قوة واتساعا، واشترك حزب البعث العربي الاشتراكي في الحكم علي أساس الابتعاد عن الأحلاف وإعلان الحياد واتباع سياسة عربية تحريرية موحدة . ونتج عن هذه السياسة:

أولا: البيان الثلاثي الذي وقعته مصر وسوريا والسعودية، والذي ينص في مقدمته علي زيادة الوعي زيادة ملحوظة. كما نص علي انتهاج سياسة غير منحازة، والتخطيط لمقاومة الصهيونية.

ثانيا: فشل سياسة الأحلاف في الأردن وتطهير الجيش الأردني من غلوب وأنصاره، والاتفاقيات العسكرية والاقتصادية التي تلت ذلك بين الأردن ومصر وسوريا والسعودية واليمن، وأهم هذه الاتفاقيات اتفاقية التضامن العربي، التي جعلت الأردن قادرا علي الاستغناء عن المعونة البريطانية.

ثالثا: عزل حكام بغداد عن الشعب وحصر السياسة الحليفة في العراق، وحشد القوى الجماهيرية لمقاومتها.

رابعا: أدي انتهاج السياسة الاستقلالية في مصر وسوريا إلى تحطيم طوق التوازن الذي فرضه الغرب علي العرب للحد من قوتهم العسكرية وضمان تفوق اسرائيل عليهم، ومكنهم من شراء الاسلحة السوفييتية الحديثة[20].

وأهم ما ارتبط بحلف بغداد من أحداث كانت لها أكبر الأثر علي العلاقات السورية المصرية والتقريب بينهما حدثان:

1/ كسر احتكار السلاح، واتجاه الدولتان إلى الكتلة الشرقية.

2/ ضغط حلف بغداد علي سوريا وجعلها تمد يدها أكثر إلى مصر.

محاولات تهديد سوريا من قبل أعضاء حلف بغداد:

لقد كان توقيت هذه المؤامرة هو نفس الوقت الذي يبدأ فيه العدوان الثلاثي علي مصر عام 1956م، ومن هنا تأخذ هذه المؤامرة قيمتها العدوانية الحقة، ولم يكن التوقيت مجرد صدفة علي الاطلاق، وان ماقام به الاستعمار من عدوان ثلاثي علي مصر ومحاولة لقلب نظام الحكم في سوريا إنما هي حلقات من سلسلة واحدة ربطها الاستعمار ببعضها... لتصبح ذات فروع متعددة تمتد لكافة أنحاء الوطن العربي.

وحتي تعطي ملامح هذه المؤامرة أهدافها الحقيقية نورد باختصار هنا أطراف المنفذين وأعمالهم:

1/ فهناك ميدان أعداد المسلحين المدربين ويقوم به القوميون السوريون.

2/ وهناك ميدان المال والسلاح ويقوم به العراقيون فيسلمونه بواسطة العقيد صفا[21] والقوميين السوريين.

3/ وهناك الحملة السياسية ويقوم بها منير العجلاني[22] بواسطة الكتلة النيابية... ونواة الكتلة قد تكونت منه ومن فيضى الأتاسي ومن عدنان الأتاسي وميخائيل اليان وفرزت المملوك[23] .

4/ وهناك دور امريكا، وقد برز في جلسة البرلمان السوري بتاريخ 19 نوفمبر 1956 . وعندما لم يمض علي العدوان الثلاثي علي مصر بضعة عشر يوما وقف منير العجلاني قائلا: (وانتقل الآن إلى السياسة الخارجية، فقد رأيت قوما ينكرون علينا أن نحيّي أمريكا... أريد ان أحييّها لأسباب كثيرة، لأن تحيتها تنفي عنا علي الاقل أننا متشيعون تشيعا كاملا لروسيا...)، وهكذا فإذا لم يحييّها فإنه يخشي أن ينسب إليه التشيع الي روسيا، (وهذه هي لب سياسته وسياسة المستعمرين إذا لم يتلقف التحية، فالبلاد متشعية لروسيا، وإذا لم يدخلوا الحلف العراقي التركي فالبلاد شيوعية، أما إن بإمكاننا أن نكون عربا مستقلين بدون ان نرتبط بأي حلف فهذا لا يستقيم بمنطقة ولا منطقهم[24].

5/ وهناك العراق بأمواله الضخمة وسلاحه يهربه إلى داخل سوريا، قال منير العجلاني فالجلسة السابقة ذكرها: (أخيرا فأنا رجل في اعماق نفسي شيء من الضعف بالنسبة للعراق، ومهما اختلفت الامور أضل احمل له حبا قد يحجب عني أشياء، وبهذه المناسبة أيضا احب أن أقول للحكومة الكريمة يجب علينا ان نجلب العراق إلى صفنا مهما كانت التضحية، ولا يكون ذلك بحملة الشتائم فهي لا تفيد... فلا ينفع الإنسان أن يشتم بينما يصنع الآخرون ما يريدون)[25].

اما بخصوص تدخل الجيش العراقي في سوريا فيقول عدنان الأتاسي[26]: "وقال لي السمرائي" إن العراقيين لا يقدمون علي العمل مالم يكونوا ضامنين النتائج، واقصد بقولي هذا إن الحكومة العراقية لا يمكن أن توافق علي عملية الانقلاب في سوريا، دون ان تكون نتائجها مضمونة ونجاحها مؤكد، تم ذكر لي إن شخصية عراقية كبيرة موجودة في بيروت منذ قليل، وان هذه الشخصية ترغب بالاجتماع بي، وعرض علي ان نذهب معا للاتصال بها فلا امانع" وهكذا اخد إلى حيث قابل اللواء

الدغستاني الذي حدثه ..عما يجب اجراءه بعد نجاح الانقلاب، "وفيما إذا كان بإمكان والدي[27] أن يقبل ان يرأس الحكومة الجديدة التي يتمخض عنها الانقلاب".

أما دور بريطانيا فلا يجب ان يخفى في هذه المؤامرة، وكذلك دور حلف بغداد بالتالي، فبريطانيا كانت تحكم، عمليا العراق داخليا وخارجيا، ومعروفة تلك الصلة التي تربط نوري السعيد ببريطانيا، وبريطانيا هي التي دفعت (الحزب القومي السوري الاجتماعي)[28] إلى قتل العقيد عدنان المالكي عام 1955م، وحتى يتضح الدور الذي قام به هذا الحزب المحظور في سوريا نورد هنا جزء من الرسالة التي ذكرها النائب العام السوري في مطالعته اذ قال: ونحن نورد هنا الرساله الموجهه من (سعيد تقي الدين) القومي السوري الذي يعمل في خدمة الاستعمار، واسرائيل، نورد له هذه الرسالة الموجهة إلى رئيس حزبه جورج عبد المسيح والمؤرخة في 25 يناير 1955م لتبحث في المجلس الأعلى قال فيها: "انه قابل سعيد القزاز وزير الداخلية في العراق وقد افضى إليه وزير الداخلية بأن العراقيين حاولوا القيام بحركة في دمشق بواسطة الشخصيات والأحزاب ودفعوا مبالغ لقاء ذلك ففشلوا. والآن هم معتمدون على حركة داخل الجيش والارجح ان الذين سيقومون بهذه الحركة هم من الضباط الصغار لأن الضباط الصغار ليس لهم رتب يخسرونها إذا طغي العراق على الشام، وموقف الشام هو أحد اثنين، اما ستنضم إلى الحلف التركي أولا تنضم. فإذا انضمت الى الحلف التركي فسيسيطر نفوذ العراق والترك ويكون العمل الأول ضربة دامية جذريه للحزب الشيوعي" وقال في هذه الرساله: "وقد يكون العمال الغربيون هم انفسهم ينشرون الشيوعيه في الشام تبريرا للضربة"[29].

وليست هذه هي كل اطراف المؤامرة على سوريا... بل هناك اديب الشيشكلي آخر دكتاتور حكم سوريا قبل وحدتها مع مصر عام 1958م.

أما كيفيه تنفيذ المؤامرة فتبدو بجلاء في دور كل من العراق واسرائيل (كان محمد صفا شرع في الحديث قائلا: إن وضع البلاد سيء، وأنه ينبغي التخلص من الوضع الحاضر عن طريق عصيان مسلح يشترك فيه المواطنون في كافة أنحاء سوريا بغية

وضع حد لأعمال الجيش، وأنه متى نشبت الثورة على هذه الصورة فإن الجيش العراقي سيتدخل من الحدود التي لا توجد فيها قطاعات (وحدات) للجيش، على اعتبار أن معظم القطاعات السورية منتشرة على الحدود السورية – الإسرائيلية كما أنه من المحتمل ان تحصل في الوقت نفسه مناوشات بين قوات الجيش الإسرائيلي وقوات الجيش السوري، بحيث لا يستطيع الاخير ان يبعث بقطاعات لمقاومه العصيان او لرد تدخل الجيش العراقي)[30].

لقد كان المشرف على تنفيذ المؤامرة وأمدادها بالمال العقيد صالح مهدي السامرائي الملحق العسكري العراقي في بيروت. (وكلف العقيد صالح مهدي السامرائي الملحق العسكري العراقي السابق في دمشق، وكان أبعد عنها لاشتراكه في مؤامرة سابقة فنقلته الحكومة العراقية إلى بيروت، كلف هذا العقيد بالقيام بالاتصالات اللازمة لإنفاذ المؤامرة ووضعت بين يديه الأموال التي يتطلبها تحقيقها)[31].

لقد كان لموقف سوريا ومصر من حلف بغداد ما ازعج الاستعمار وما دفع به لتلمس الوسائل التي يستطيع بها أرغامها على الدخول فيه: (ولاحظ إن سوريا مركز التوازن في هذه المجموعة العربية، فلو خضعت بطريقة ما لامكن فرط هذا العقد العربي، ولخضعت بعدها الأردن ولبنان ولضعف مركز مصر وغلبت على أمرها، فإما قبلت الدخول في هذا الحلف طوعاً أو كرهاً وإما أهملت وعزلت عن بقية العالم العربي، ولقد جرى عرض هذا الرأي في دعوى مقتل المرحوم العقيد المالكي في الرسائل المرسلة من قبل هشام الشرابي من امريكا إلى رئيس الحزب القومي السوري والتي كانت موضع بحث ومناقشات في المحاكمات السابقة والخاصة بقتل العقيد المالكي.

(فالعزم قد تركز على عزل مصر بإخضاع سوريا للحلف العراقي التركي بأي ثمن وبأي وسيلة. لقد لجأوا إلى التهديد بالطرق الدبلوماسية فما أغني تهديدهم شيئا. لجأوا إلى الحشود على الحدود التركية السورية وعلى الحدود العراقية السورية فما افلح

كيدهم. دفعوا اسرائيل للحشد والتحرش اكثر من مرة فاخفق مسعاهم فاستقر رأيهم على ان يعالجوا ذلك بوسائل اخرى، فأجمعوا كيدهم واخذوا يكيدون...)[32].

يتضح مما سبق ان سوريا كانت مركز التوازن في محاربه الحلف، وما دامت سوريا تقاومه فلا سبيل لنجاحه، فإذا ارتبطت به رجح وزن الحلف ومالت الاردن ولبنان بطبيعه الحال، وجرها الثقل. (فهناك اذن عزم قائم دائم و إرادة حاضرة ثابتة من قبل الحكومة العراقية لاشاعه الاضطراب في سوريا، تحدث عنه سعيد تقي الدين وكشفه برسالته إلى جورج عبد المسيح منذ أول عام 1955م، والحلف العراقي التركي على وشك التوقيع، دفع الأموال العراقية إلى الاحزاب والافراد[33]، ولما فشل ذلك عمد إلى إحداث حركة في الجيش وقتل المرحوم المالكي، فهناك امر استعماري دائم بإحداث القلاقل في سوريا)[34].

وهكذا كان بذرة الجرائم التي ولدت الجريمة تلو الجريمة هي الحلف العراقي التركي، أو ما يعرف باسم حلف بغداد. (فمند ان عقد هذا الحلف ومنذ أن وقفت منه مصر وسوريا هذا الموقف الذي يمليه عليهما واجبهما القومي، أخذ الاستعمار يتوجس من هذا الوعي العربي الذي جاوز القول إلى الفعل، ونحن نعتقد إن الاستعمار لم يكن توجسه للموقف السلبي الذي وقفته مصر وسوريا من الحلف، وإنما توجس من موقفهما العربي الإيجابي الذي أعلن إن مهمة الدفاع عن الشرق العربي إنما يعود لأهله لا للاستعمار. فلقد علم إن مصر وسوريا ستسعيان وتعملان لاستكمال اهميتهما ليكونا في الحالة التي تتناسب وموقفهما المستقل، ومعنى ذلك انهما ستسيران يوما بعد يوم نحو كمال الوحدة ومعنى ذلك إن الاستعمار كالمغتصب سيجد المغصوب منه المعتدى عليه وهي البلاد العربية، اخذة بأسباب القوه التي تحقق وجودها وتفرض احترامها وتحمي استقلالها)[35].

نهاية الحلف:

بمجرد أن أعلن عن الإتفاق التركي العراقي في 22 فبراير 1955م تحركت القوي الوطنية العراقية داعية النظام العراقي للخروج من الحلف المشبوه والإلتزام

بميثاق الجامعة العربية، واستطاع الشعب العراقي الخروج من هذا التجمع المعادي للمصالح العربية والداعم لحماية اسرائيل، حيث قام الجيش العراقي بثورة تحت قيادة عبد الكريم قاسم 14 يوليو 1958م، معلناً إنسحاب العراق من الحلف، وذلك خلال مؤتمر صحفي عقده عبد الكريم قاسم يوم 24 مارس 1959م، وقد تم نقل مقر الحلف إلى انقرة وأصبح اسمه حلف المعاهدة المركزية(السينتو).

كان الباكستان ثاني المنسحبين، لأنه وجد لا فائدة منه أثناء حربه مع الهند فأعلن انسحابه في 1971م، ثم جاء الانسحاب الايراني بعد ثورته علي الشاه ابن الغرب، ويعتبر انسحاب ايران في 1979م أخر سطر في حياة هذا الحلف وتم اطلاق رصاصة الرحمة وأصبح طي النسيان.

وللأسف وبعد إنهيار الاتحاد السوفييتي، أصبحت أمريكا الشرطي الاحادي في العالم، حيث لعبت دوراً في منطقة الشرق الأوسط وذلك بأن قامت بإدخال المنطقة في حروب أهلية ليس لها أمل في النهاية، وجعل الدول العربية والإسلامية تتآكل من الداخل حتي تتحول إلى دمى في يد الآخرين.

المصادر والمراجع:

1/ مطـاع صفري: الثورة في التجربة، دار الطبع بيروت يونيو 1963 صـ 244.

2/ محمد حسنين هيكل: ملفات السويس (حرب الثلاثين سنة) مركز الأهرام للنشر والترجمة، القاهرة؛ الطبعة 1986 ص 312.

3/ Campell, John." Defence of the Middle East".(Harper & Brother , New York, 1960) P . 40.

4/ محمد حسنين هيكل : مصدر سابق، ص 315.

5/ نفس المصدر، ص 315.

6/ نفس المصدر، ص 318.

7/ د.عبد الملك عودة، دراسات في المجتمع العربي، جامعة القاهرة (دار النهضة العربية 1961–1962) الطبعة الثانية صـ 320 .

8/ وولتر لاكور: "الاتحاد السوفييتي والشرق الاوسط" (ترجمة لجنة من الاساتذة، المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الأولي 1959) ص 130 – 131.

9/ Cremeans "The Arab and the cold World", Fredrick, New York 1963 , P140.

10/ Campell OP.Cit; P. 54

11/ نضال البعث، الجزء الرابع ص 25 – 26.

12/ المرجع السابق، ص 51 – 52.

13/ غاي ونت: (أزمة الشرق الأوسط)(ترجمة الراصد العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1957)، ص 37 – 38.

14/ نفس المرجع ، ص 55.

15/ Campell OP.Cit;P.234

16/ تم توقيع اتفاقية الجلاء تلك في 27 يوليو 1954.

17/ Eden Anthony: Full Circle "Canada and London 1959" P .328 -340.

18/ ياسين الحافظ: (حول بعض قضايا الثورة العربية) (دار الطليعة، بيروت، سنة 1965). ص 178.

19/ نفس المرجع، ص 180.

20/ وولتر لاكور: مرجع سابق، ص 245.

21/ العقيد صفا ضابط مسرّح من الجيش السوري .

22/ كان نائب في مجلس النواب السوري، وكل الأسماء التي ستذكر فيما بعد هم كانوا أعضاء في مجلس النواب السوري .

23/ انظر الوثيقة الثانية من قراءات النائب العام في حقيقة المؤامرة علي سوريا ص83.

24/ المصدر نفسه، ص 80.

25/ المصدر نفسه، ص 86.

26/ المصدر نفسه، ص 95.

27/ يقصد هاشم الأتاسي أحد رؤساء سوريا السابقين .

28/ عضو الحزب القومي السوري الاجتماعي (لبناني الأصل).

29/ الوثيقة الأولي من قرار الاتهام في المؤامرة علي سوريا ص 36–37 .

30/ المرجع السابق، ص 46.

31/ المرجع السابق، ص 15 .

32/ الوثيقة الثانية من مطالعة النائب العام في حقيقة المؤامرة علي سوريا ص7–8.

33/ محمد حسنين هيكل: (ما الذي جري في سوريا) (الدار القومية، القاهرة1962). ص 176.

34/ الوثيقة من حقيقة المؤامرة علي سوريا، مرجع سابق، ص 31.

35/ المصدر نفسه، ص 26 .